أعلام العرب
٦٢

الجاحظ

تأليف
الدكتور أحمد كمال زكى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

فى أحد أيام المحرم من عام ٢٥٥ / ديسمبر سنة ٨٦٨ أعلنت وفاة أبى عثمان الجاحظ فى البصرة ، وحمل النبأ الى المعتز بالله خليفة بغداد فصرخ فى جزع « لقد كنت أحب أن أشخصه الى وأن يقيم عندى ! » فقال أحد جالسيه : « انه كان قبل موته عطلا بالفالج » .

ولقد كان الخليفة يعلم ذلك من غير شك ، غير أنه أبى الا أن يعلن عن أمنية طالما تمناها سلفه ، منذ أن أفلح المأمون فى ضم هذا الكاتب العظيم الى ديوان رسائله ، وان لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام ودع بعدها العمل الرسمى ، دون أن يودع رجاله ، حتى استطاع أن يصاحب الجميع على اختلاف المشارب وتعقد الأهواء .

ان تلك الأمنية يمكن أن تقفنا بيسر على كنه الطبيعة الفذة التى سجلت للجاحظ آثارا فكرية وفنية ، لا تزال الى اليوم موضع عناية المتأدبين والمجتمعيين .. لا من حيث انها مرحلة تاريخية من مراحل تراثنا العربى ، ولكن من حيث انها نتاج انسانى يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج (٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ / ٥ أغسطس سنة ٨٦٩) أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمته .

وربما بدت المغالاة فى تلك القالة ، الا أن من يقرأ « كتاب البخلاء » الذى وضعه الجاحظ فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيـانا الى مستوى الكتب النادرة ، يلحظ أن « صاحب الزنج » أو قائد الثورة كان ينطلق فى الواقع من حيث انتهى « صاحب البخلاء » .

فثمة ضغط واستعلاء ، وأموال وثراء . وتباه وقبض يد ، من جانب السادة الذين أثروا نتيجة تحول المجتمع الاسلامى — فى القرن الثالث الهجرى — من طور الزراعة الى طور التجارة ، وثمة عامة وسفلة ، ورعاع وعبيد ، ينفسون ويحقدون ويحسدون ، ويريدون القوت والعمل والانطلاق .

وهناك علة سياسية تنخر فى عظام الخلافة الهاشـمية اسمها « الترك » أطاحت فى عجل — بعد حكم المتوكل — بالمنتصر والمستعين والمعتز ، غير أنها كانت تعمل دائما على أن يكون هناك الغش والرشوة والكذب والنفج والنفاق . لكن بعض هـذه أو كلها من الصفات التى يمكن أن تشيع فى الطبقة التى أثرت ، وهذه أشبه ما تكون بكل طبقة بورجوازية — وعذرا عن استخدام هذه التسمية المحدثة — تطل برأسها ، وتريد أن تثبت أقدامها على الأرض .

وهناك تحزب من جانب الأعاجم ، وتعصب من جانب العرب ، وصراع بين الأفكار ، وجواذب كلامية ، ومناقشات سوفسطائية . وكلها تذوب فيما يكتب الجاحظ ويبعث به الى أقاصى الشرق

والغرب ، فيعمل عمله فى اثارة الآراء وحفز الهمم وحشد الجهود للتقصى والمتابعة .

ان الجاحظ لا يظل الكاتب الانسانى للعرب أو للمسلمين فحسب ، ولكن فى وسعنا أن نزعم أنه أسـهم أيضا فى تكوين هؤلاء . فلعله أعطى بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم الأخلاقية ، حتى اننا لنجرؤ فنقول : انه أفاض من سخريته وذكائه عليهم شيئا ربطهم به — دون أن يشعروا — الى الأبد .

وعلى الرغم من أنه يعترف بفضل واحد كابن المقفع وآخر كسهل بن هارون — وكلاهما عربى اللسان فارسى الدم — فالشيء الذى لا شك فيه أنه خرج بالنثر العربى من حدوده الكلاسيكية الى حيث يصبح ظاهرة اجتماعية عاشت كما ينبغى أن تعيش كل ظاهرة متفاعلة .

وكم كان خليقا بمن تبعه أن ينحو نحوه ، فيعكف على الحياة دون الاكتفاء بنقل الموروث — عن طريق الرواية — ويرصدها ذكريات وتجارب ونظرا ومحاولة فهم وتفلسفا !

وانه هو ليسجل ملحوظاته الأولى مبتدئا بمرحلة تعليمه فى الكُتَّاب ، وهى الحقبة التى كانت فيها الحياة البصرية تؤذن بالتحول الى بغداد ، واستطاع الحمراء أو الموالى أو أحرار الموالى الفرس — ويسمون الآزادمردية — أن يتولوا أمور الحكم ويبسطوا سلطانهم فى القصر والمسجد والسوق ومجلس المناظرة ، وقد شاهد مواكب العجم وهى تتوقف أمام قصور البصرة ، وعلى

ضفاف أنهارها الكثيرة ، ورأى انطواء العربى على نفسه فى اقطاعيته التى كان العبيد يتناقصون فيها يوما بعد يوم ، وباع هو نفسه أحقر السلع فى سوق القصارين وسوق الدباغين وفى الكلاء والفرضة ، وشاهد العوائين والمكدين وسمع الى اللصوص ، وعرف حيل المحتالين والمستعرضين ، فبقيت هذه الحياة المحلية منطلقا لآفاق أرحب ، عرف فيما بعد كيف يستغلها فى بعض كتاباته .

وظل طيلة حداثته وهو يرى كيف تتشكل المملكة الاسلامية فى كنف خليفة بغداد ، وكيف أصبح عليه أن يجد فى تحصيل العلم ، كما يجد الموالى ، ليصل الى هذا الخليفة بادئا بعظيم ما فى بلدته ، ومتحولا الى أمير فأمير .

وما كان لأحد أن يأسى على ذلك أو يعارضه ، لأنه كان مبدأ عاما فى عصر تضخمت فيه الأنانية واستبدل بالايثار أثرة . وكان الناس يعزفون عما يعوق حركتهم الى أمام ، ويختارون أقصر الطرق مهما تكن طبيعتها ، ذلك أن المهم هو : خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع !

وقد يعنينا التاريخ الآن ، فهو منتصف القرن الثانى الهجرى . وكان المكان أعقد بقعة سكانية فى العالم ، حيث يتلاقح العرب بالفرس ويمتزج الروم بالزنج ، والزط بأهل السند والبربر والصين ، وثمة كلدانيون أو نبط ودماء أشورية وأخرى عدنانية وقحطانية . وكل هذا يدفع بالحدث الى شباب قلق وذكى وواع وعميق الأغوار ، وبه استطاع أن يقاوم روح العداء

ـــ الشعوبية ـــ التى كان العرب الأصلاء يقابلون بها فى كل مكان ، وان ظل دائما مقدرا أمجاد الأولين من غير العرب .

على أنه اذا كان لابد من أن يظهر الجاحظ على حقيقته ، فلابد من مناقشات مخلصة مع آثاره ، وهى كثيرة كثرة تدهش القارىء الى حد بعيد ، لو أنه عرض لها فى مقدمة كتابه « الحيوان » . ويبدو أن الكاتب نفسه أراد أن يعدد بقلمه ـــ ولو على سبيل التيه ـــ هذه الكتب ، ويبدو أن علينا نحن أن نطيل الوقوف معها لضآلة ما حفظ عن حياته ، برغم هذه الذكريات التى اعتاد أن يسوقها فى ثنايا كتبه بلا ملل .

والقضية على أى حال قضية فرد متطلع ، لكنه كان هين الأسرة . وتمكن من أن يظفر بالكثير ، ويثرى ، ويحتل مكانة بارزة فى مجتمع قد يصل هوانه به الى حد العبث بتفكيره .. فيكتب فى الشيء ونقيضه ، متحدثا عن الكلب والديك مثلا حديثا يبدو عاديا ، أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلى ، أو امتدادا ـــ قد نوه هو به للعجب ـــ لمنافرات الجاهليين ، لكننا لا نلبث أن تتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسى أو الاجتماعى ، كما تتبين هذه الصلة ـــ بصراحة ووضوح ـــ فى رسالته المشهورة « مناقب الترك ، وعامة جند الخلافة » .

ومهما يكن من شيء فان الجاحظ الذى كان الخلفاء يتمنون الاتصال به ، مدين لهم ولمن دونهم بكل ما يبدر منهم فى حالات صفوهم وحالات كدرهم وعلى شتى الظروف ، فاذا كان علينا

أن نوفى ــ بدلا منه ــ حقهم من التقدير ، فلابد من أن نرجع القهقرى نحو قرن تقريبا نهايته عام ٢٥٥ .

على أننا نتوقف بعض الشيء لنقدم هــذه الصفحات عن الجاحظ ، وما نظننا بحاجة الى اشارة خاصة الى المنهج الذى اصطنع . فقد أخذ به « الأصمعى » أولا ثم « ابن المعتز العباسى » بعد ذلك ، وكان كلاهما محاولة لمزج حياة علم بآثاره وعصره فى اطار من التاريخ المحقق ، وهذا الصنيع ــ فى رأينا ــ وفاء لمنطق السيرة الفنية فى حد من حدودها المختلفة .

ولسنا نريد بعد ذلك أن نتطرق الى العمل نفسه ، فهو بين يدى القارىء يتفحصه ويقول فيه كلمته . لكننى أرجو أن أنبه على أنى اذا كنت أفدت من أعمــال المحدثين فى « الجاحظ » وبخاصة جاحظ الدكتور طه الحاجرى ، فقد كانت افادتى الكبرى من آثار الجاحظ نفسه ، بالاضافة الى طبقات المتقدمين وتواريخهم.

كما أرجو أن أنبه على أنى رأيت أن ألحق السيرة بقسم صغير ضمنته شروحا وتعليقات رأيتنى مضطرا اليها ، لالقاء الضوء على ما رأيت أنه لا يمكن أن يظل فى الظلام ، واستغنيت بذلك عن التهميشات المألوفة محددا كل شرح أو كل تعليق برقم خاص .

متطلعا فى نهاية الأمر الى ما اعتاد الجاحظ أن يلفت اليه نظر قارئه ، وهو حسن النظر فى الكتاب ولباقة تناوله ، حتى لا يضيع فى اشتجار القيل والقال .   والله المعين .

مصر الجديدة فى يوليو سنة ١٩٦٦   **أحمد كمال زكى**

الباب الأول

البحث عن طريق

١ ـ عمرو بن بحر

على تلك الدرب التى تخرج من سكة المربد ، وفى بقعة مهملة يغور فيها نهر صغير من عشرات الأنهر التى عرفت بها مدينة البصرة القديمة ، يقف غلامان صغيران بعيدين عن أترابهما يرمقانهم فى لهوهم بهدوء لا يتناسب مع سنهما الغضة ، وفى يد أحدهما ـــ وكان أسمر ناتىء الجبهة بارز العينين ـــ لوح وبعض أوراق ، وبدا الآخر أطول قامة دقيق الملامح حاد النظر .

ربما كانا فى السادسة أو السابعة ـــ فلا أحد يدرى متى ولدا تماما ـــ الا أنهما عرفا فى الحى من النجباء ، على خلاف ما بينهما من أصل وأسلوب تنشئة وطريقة حياة . وكان الأسمر القصير يتحدث دائما عن أبيه بحر الكنانى الذى ودع الدنيا ولما يزل فى ريعان الشباب وخلف أمه تعيش به على دخل هين ، وأما الآخر دقيق الملامح فهو لم يكن يعنيه الا أن يردد أنه على هوان أصله ـــ على الأقل فى نظر صديقه العربى ـــ يستطيع أن يقول ان أباه سيارا ينتمى الى عرق فارسى ثابت .. ولكنها الأيام !

غير أن هذا أو ذاك ليس بأبرز الخصائص ولا بأقواها ؛ وانما العجب العاجب حقا هذه الرغبة التى طالما اعتملت فى صدر الصغيرين .. أيهما يسبق الآخر فى مجال العظمة ؟

كأنما كانا يستشفان الغيب فينبئهما بأنهما من العظماء لا محالة ، أو كأنما اجتمع أهلوهما على أن يصل كل منهما الى ما وصل اليه كبار البصرة ، فحملا الرغبة كلاما وعزما معا . وراحا يجدان ويحفظان ، تسعفهما ذاكرة لاقطة وفطنة ملحوظة ، وعرفهما معلم الكتاب ندين صابرين على مشقة الرواية واستيعاب آيات القرآن . ولم يكن فيها ثمة نقص ولا توان ولا اهمال ، ولعل هذا يفسر وقفتهما الطويلة المتأنية .

فهاهم أولاء الأولاد يلعبون أمام عدة بيوت بعضها من القصب والبعض الآخر من الآجر ؛ عقدت عليه سحائب الغبار طبقة قاتمة ، وهاهم أولاء يخوضون فى الوحل ويتراشقون بالحصى ونوى التمر ، بينا أمهاتهم من حشوة النساء يصرخن عليهم بلا جدوى ، وهنا يقول الأسمر البارز العينين لابن سيار :

ـــ تترك أمثالك لتلازمنى ومعى هذا ؟

وكان قد أشار الى اللوح والأوراق ، فقال ابن سيار وهو لا يرفع عينيه عن غلمان الحى :

ـــ ان كنت تعنى بأمثالى موالى العرب فان العرب ليسوا سودا يا عمرو .. أتعرف هذا ؟

فقال ابن بحر :

ـــ أعرفه ، ولكن يقال ان فيهم من السود كثيرين سماهم رواة المسجد بالغربان يا ابراهيم !

فقال ابن سيار :

ـــ فأنت اذن غراب الحى يا عمرو !

ويضحك ، ولكن عمرا لا يتركه ينعم طويلا بضحكه ، اذ يسرع فيلقمه حجرا عارضا بهجنته واختلاط نسبه ، فيقول :

ـــ ولكنى لست من بلخ ، ولم ترضع أمى بلبنها غـيرى يابن الحمراء .

تلك سبة ، ولكن ابراهيم بن سيار يعلم أن صاحبه لا يتورع مطلقا عن أن يسلقه بمثلها أو أفحش منها وطالما أثير فغضب ، ولهذا آثر أن يسكت . ولكن بقدر السهولة التى يمكن أن يتحمل بها صبيان هذا النوع من الغمز والتجريح ، كان كبارهما يشقون به بعد أن عصفت العصبية بالمدينة الكبيرة وامتدت الى بغـداد ـــ التى كانت فى ذلك الوقت لا تزال فى نهاية ربع قرنها الأول ـــ وسائر مدن العراق . حقا كان العرب اذ ذاك هم السادة ، لكن القطاعات السكانية الأخرى من « الأعاجم » حملوا الضغن على « سادتهم » خفية وعلانية .

وربما بقى شىء آخر قد يخطىء النظر فى الكشف عنه ، وان تكن الأخبار تحمله ملوّحة به فى وجه هذا الكنانى السليط . ولقد اعتـاد هـذا الشىء أن يؤرقه ، ويحاول هو جهده ـــ بقـدر

ما يستطيع ــ أن ينقضه ، ولكن ما السبيل ؟ ان ابن سيار يخبره ، ببراءة يصطنعها ، أن أمه تقول لصواحبها وهن فى أفنية دورهن الحقيرة : ان أم عمرو لم تكن زوجا لعربى قح ، ذلك أن رجلها بحر ابن محبــوب بن فزارة كان مولى زنجيا لأبى القلمس الكنانى الفقيمى ، وعمل جمــالا لواحد من سادة العرب اسمه عمــرو ابن قلع .

أهذا ممكن ؟

تلك هى المعضلة ، وأنى له بمن يصحح هذا الوهم الذى يريد أن ينال منه وينحدر به الى حيث يقف الحمراء ؟ وكانت الأم نفسها لا تزجى له رأيا قاطعا ، وطالما راوغت ، وفى كثير من الأحيان كانت تقول له :

ــ انه الحسد يا ولدى .. فأنت عربى صريح النسب كريم الأصل ، ولن أدعك حتى تأخذ بآداب قومى وجيرتى .

كلام جميل ، ولكن أين هو من الحقيقة ؟

لقد كان ولا شك خليقا أن يستوى على مكان البروز بين الأعاجم ــ ومنهم صديقه ابراهيم ــ ثم ينتهى شأنه أو ينتهى شأنهم هم كما انتهى شأن الآخرين ، ولكن أهذا يكفى والقوم من حوله يتصايحون بالنسب ويتهاجون بالهجنة ؟ ان أحدا ليس أحق منه بالدفاع عن أرومته لهذه الشوهة التى تجعله أمثولة بين أقرانه . وليكن عنيدا ، وليكن قوى النفس بالغا فى القــوة

النفسية ، فهو على قوته تلك سيظل كالآخرين يبحث عن الأصل العربى الصريح .

وكان من الجائز أن تفسد هذه البلبلة حياته وربما دمرتها ، ولكن صبره وعناده وذكاءه واستعداده العقلى الكبير .. كل أولئك كان يدفعه دفعا الى أمام حتى ضرب المثل بجده معلم الكتَّاب ، وتعود هو أن يحمل لوحه فى تيه ليريه لأترابه فى الوقت الذى كان فيه ابن سيار لا يكف عن التنديد به مزحا ، زاعما أن المعلم لا يحبوه بوده الا رثاء على دمامته .

ذلكم هو عمرو بن بحر الذى ولد حول العام التاسع والخمسين بعد المائة ، وانتمى الى بنى كنانة بن خزيمة [1] . وانتماؤه هذا بحق أو بغير حق لم يكن يعنى أكثر من محاولة للتمسك بأهداب الكبر ، وظل ، بعد ذلك أو قبل ذلك ، من أسرة رقيقة الحال انتهى أمرها بأن جاورت أسر الموالى فى هذا الحى الفقير من أحيـاء البصرة . فضلا عن أن التاريخ يقدر أنه على الرغم من أن عمرو ابن قلع ـــ أحد آبائها الأولين ـــ كان صاحب النسىء [2] فى الجاهلية فانها لم تنجح كثيرا فى التجارة ، وضربتها حركة الفتوح الاسلامية فى مقتل ، حتى أصبحت على الاسلام من عامة القوم ، تقنع بنصيبها الضئيل من العطاء السنوى المقرر .

ولا يحسن الاستطراد بعـد ذلك ، فان الطفل ابن الأسرة المغمورة القاطنة فى هذه البقعة الحقيرة من أحياء البصرة كان يحث خطاه الى الشهرة ، دون أن تكون هناك خطة معينة لتنشئته .

بل ربما كانت أمه التى راحت تكفله بمشقة كانت تطمع فى أن يجيد الكتابة ليعمل أى عمل ، ولكن لا بأس فى الوقت نفسه من أن يمتهن أية مهنة تدر عليه وغليها أى ربح !

وعندما كان يردد على سمعها أسماء شيوخ الجامع من أمثال : « الخليل بن أحمد » و « ثمامة بن أشرس » و « أبى الهذيل العلاف » و « الأصمعى » و « أبى عبيدة » كانت تهز كتفيها وتقول له :

ــ سينفعونك يا بنى ، ولكن هل تستطيع أن تصل اليهم ؟ أرجو ذلك بشرط ألا نبيع بقية ما خلفه لنا أبوك .

ويؤكد لها انه عندما يقترب من واحدة من حلقات هؤلاء الشيوخ يفهم الشىء الكثير ، ويعلن أيضا انه يجد لذة كبيرة عندما يحضر مناقشة بين الأصمعى وأبى عبيدة ثم يخبرها أن سريا اسمه أبو عمران مويس بن عمران يثنى عليه دائما ، كلما التقى به فى المسجد ، فتقول :

ــ ان كنت تظفر منهم بطائل : فأنت مشكور يا عمرو ، وهم مشكورون .

وتسكت ويضطرب هو ، غير أنه يحس أنه مكلف باحتمال تبعة محورها لقمة العيش . ومثل هذا خليق بأن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف ، وبخاصة مواقف الأزمات ، ولهذا لم يكن يجد غضاضة اذا امتدت يده الى ما يمنحه له مويس ، وكان على ندرته يرضى أمه شيئا ما ويثيره هو شيئا ما . وتبدو

الظروف كلها فى هذه المرحلة المبكرة من حياته متعاقدة على أن يسير فوق الشوك على نحو يثير حفيظته على البشر ، ويملأ نفسه بالحنق على الانسان ، ويوجه سخطه الى هؤلاء الناعمين فى قصور بغداد ودور البصرة الكبيرة ـــ ومنها دار مويس التى كانت ملتجأ للعلماء والمتناظرين ـــ لكنه فيما يبدو كان يقبل كل أمر بيسر لا يخلو من تساؤل ، أو لعله راض نفسه على ذلك ، بل ربما هون على نفسه بضحكة ما . وستكبر هـذه الضحكة مع الأيام ، لا لتصبح مجرد قهقهة عالية ، وانما لكى تكون دنيا كاملة من السخرية والسحر والمرارة .

لكنه من ناحية أخرى كان يراقب ويدقق ويحصى ويطيل السمع الى أصوات الناس والحيوان ، ولعله قلد صوتا أو حركة أو أقبل على حشرة من الحشرات يقلبها وينخسها فى بطنها بمسمار . وأكثر ما كان يلذ له ـــ بل لعله الأمر الوحيد الذى يجارى فيه صبيان الكتاب ـــ أن يعدو وراء أحد الكلاب الضالة ويحصبه بالحجر ، أو يلقى عليه لوحه اذا رآه نائما فيرض عظامه (٣) .

لمـــاذا ؟

لا ندرى ، فليس كل شىء يمكن تفسيره فى سلوك غلام يعيش ظروفا مضطربة فى عصر تتشابك فيه القيم !

ويحدث فى يوم من الأيام أن تنقلب الآية ـــ وهذا يهزه ـــ فيرى كلبا يصول وسط أبناء الحى عاويا نابحا ، والجميع يجرون منه فيصرخ قائلا :

ـــ انها لحظة من لحظات الثأر .. يا غوثاه !

وهناك واحد من أصحابه الصغار ـــ اسمه مهدى ـــ يقف بجانب حانوت أبيه القصاب ، فيثب عليه الكلب وثبة تطيح باللوح ثم يدفع بفمه الى وجهه . وقد رأى عمرو أن من العبث منع هذا الكلب عما هو فيه ، واكتفى بمراقبة المعركة غير المتكافئة . وكانت النتيجة : أن الكلب تمكن من فقع ثنيته فى موضع الجفن من عين صاحبه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم الى شطر خده ملقيا به على وجهه وجانب شدقه ، بينما راحت الدماء تنبثق بقوة ، حتى ظن من رآه أنه مقضى عليه لا محالة ، وبخاصة عندما شوهد لا ينبس كأنما أسكته الفزع الأكبر (٤) .

٢ ـ أبو عثمان

حكى عمرو حكاية مهدى لأمه ، فأعلنت عن اشفاقها المصطنع بتقليب شفتيها ، ثم نصحته بترك مداعباته الثقيلة للكلاب وغيرها . بل راحت تندد بكل ما تراه منه من اهتمام بالحيوان عامة ، فالعاقل من لا يشغل نفسه الا بما يملأ كمه من أكياس الدراهم ! .

ولم يكن فى الواقع يريد أن يكون عاقلا بالحدود التى ترسمها أمه ، فهناك السلحفاة التى أودعها دهاليز بيته ، وهناك جرذ اعتاد أن يراه يقفز هنا وهناك كلما هدأت حركة البيت ، ولحظ أكثر من مرة ثعبانا يطل برأسه من احدى فجوات الجدار المشرف على السبخة الآسنة .. وقالت له أمه : انه يطلب الجرذ ! وأما الفراشات

والضفادع والبراغيث ، فهى دنياه التى يرتادها ، أو يحب أن يرتادها كلما ترك لوحه وورقه .

على أن أمه ذكرت ان صاحبه ربما مات ، فما دام الكلب قد أعمل فيه أنيابه على هذا النحو الذى وصفه ، فلابد أن يكون مكلوبا ، والكلب داء خطير يبدأ بأن ينبح المصاب به ويعطش أشد العطش ثم قد يبول علقا فى صورة الكلاب قبل أن يموت .

وقد انتهز فرصة فراغه من بيع ما معه من السكر الأبيض ، فأسرع الى بيت مهدى يدفعه فضوله أكثر مما تدفعه رغبته فى السؤال عن سلامته ، فاستقبلته أمه حفية به .. انها أطيب من أمه ، وقالت له انه نائم ، فسألها :

ــ هو بخير يا أماه ؟

أجابت :

ــ الله لطف به وقد خيط موضع الجرح .

قال :

ــ أبال جروا أم هرا يا أماه ؟

فأجابت :

ــ لا ، وشفاه الله !

وظل ينتظره أياما حتى رآه ذات يوم فى الكتاب ، فأخذ يمطره بوابل من الأسئلة ، ولا يرى فى وجهه من القطع الا موضع الخيط الذى خيط به ، وسرعان ما تبين خطأ أمه ، فلما عاد اليها قال :

ــ ان ما ذكرته عن الكلب الكلِب يحتاج الى مراجعة ، وسآتيك يوما بالحق الصراح .

على أن محاولاته فى سبيل ذلك توقفت فجأة ، فقد نزحت أسرة ابراهيم بن سيار عن الحى فجأة ، وأحس هو فراغا لم يكن يملؤه استرجاعه أيامهما الأولى ، وقد أصر على أن يحمل النبأ لمعلمه فما زاد هذا على أن قال :

ـــ اذن فقد فقدنا درهما يابن بحر !

ويأخــذه عجب أى عجب ، ولكنه لا يلبث أن يدرك قيمة الدراهم ، وهنا يعاهد نفسه على أن يظل وفيا لها . بل ربما فهم بوضوح سبب حرص أمه على أن تربط بين العقل والدراهم دائما ، بل لابد أن يكون حديث الناس عن البخل والجود صدى لهذه الرغبة التى أفصح عنها معلم الكتاب الجشع .

ـــ المال هو كل شىء !

ومن أجل المال يجب أن يشتغل ويتعلم ، وما على أمه الا أن تهيىء له الفرص أو تتركه يخط مصيره بيده دون أن يشغلها صغر سنه ، فهو قادر على أشياء كثيرة ، وهو يجذب اليه فى كل وقت عيون الناس وعقولهم ، ولقد يسمع أحيانا من يقول « ما هو بانسى هذا الحدقى الصغير » فيتألم بعض الوقت ولكنه لا يلبث أن يسرى عن نفسه بما تعود أن يقبل عليه .

ولقد بدا واضحا أن أبا عمران مويس بن عمران عقد العزم على أن يتعهده ، ولم يجد هو غضــاضة فى ذلك ، بل ربما هنأ نفسه . وفى الأيام التالية كان يبثه لواعجه ، ويحدثه عن آماله ومتاعب أمــه . واعتاد مويس أن يمتحن حفظه لمقطعات الشعر

وأراجيز البدو ، فيعجب أن تتسع ذاكرته لكثير مما يسهل نسيانه ، ويقول :

ـــ ما أشبهك بالمتكلمين فى حداثتهم !

وكان هو من المتكلمين أو مخالطا لهم على الأقل ، وكثيرا ما خاض فى مسائل الاعتزال والارجاء بآراء مسددة ، وشد الغلام الى مجالسهم وحثه على أن يحفظ قصائد صفوان الأنصارى وسليمان الأعمى وهما يردان على بشار بن برد فى تفضيله النار على الأرض ، ويعرضان لمسائل من العلم الطبيعى .

ولقد كبر عمرو وكنى بأبى عثمان علانية ، بعد أن هجس بالكنية خاطره طويلا ، وفى المسجد دار بجماعة من رفاقه حريصا على أن يخاطبوه بها ، فجلس الى موسى الأسوارى الذى يجتمع العرب والفرس حوله فيفسر لهم آيات القرآن الكريم بالعربية والفارسية جميعا ، ثم انتقل الى مجلس الخليل بن أحمد . غير أنه لم يكد يستقر شيئا حتى لمح صديقه ابراهيم ، وكان أبوه سيار يمسك بيده حتى اقترب من الشيخ فسلم وقبل ما بين يديه ، وان هى الا لحظات قصار حتى كان ابراهيم هدفا لأسئلة الخليل .

ان المسجد يستقبل اليوم الشخص الذى وعد بالشهرة !

وقد بدأت المناقشة عادية ، ثم ما لبثت ان ارتفعت الى المستوى الذى يجاوز مجرد حفظ آيات القرآن ومتون اللغة . وبدا ابراهيم عملاقا ، واكتسى وجهه قناعا من الصرامة والجد ، وتصور عمرو أنه لا يمكن أن يكون ـــ برغم حداثته ـــ دون أحد من شباب

الشيوخ الذى يجلسون هنا وهنالك . وعلى الرغم من أنه هو كان يمكنه أن يجيب عن الأسئلة التى راح الخليل يسددها لابراهيم ، فان هذا استلب الألباب بهدوئه وثقته وبعباراته المركزة المنغومة .

ومن بعيد كان مويس يرقبه ، فلما انتهى المشهد قدم عليه وهو يقول :

ـــ يمكنك من الآن أن تسبقه ، بل يمكنك أن تكون أكبر من هؤلاء الشيوخ ، لكن على ألا تقول ما ترك الأول للآخر شيئا ، وسأعطيك من الكتب ما تقدر على استيعابه ويزيدك فضلا وعلما .

وأعطى كتبا فى أخبار العرب ومنازلهم ومنافراتهم وأنسابهم ، فكان يحفظ منها وينقل بعضها الى كراريس زحمت أركان غرفته المتواضعة ، واستطاع أن يطمئن ـــ فيما بينه وبين نفسه ـــ الى أنه ليس دون صديقه ابراهيم . لكن أمه ، فيما يبدو ، ساءها ذلك ، أو لعلها لحظت كسادا فى تجارته المحدودة ، وقد عبرت عن استيائها بطريقة عجيبة ، فقد حدث أن طلب منها الطعام فجاءت اليه تحمل طبقا فوقه عدة أوراق وكراسات ، ولما سألها :

ـــ ما هذا يا أماه ؟

أجابت :

ـــ هذا الذى تجىء به كل يوم !

فخرج مغتما الى المسجد الجامع فلم يجد أحدا من أصحابه ، غير أن مويس بن عمران لمحه وشاهد شحوبه واكفهرار وجهه فسأله برفق :

ـــ ما شأنك يا أبا عثمان ؟

وكالعادة حدثه بما جرى ، فصحبه الى بيته وقدم اليه الطعام . حتى اذا استوفى منه حقه مد اليه يده بكيس فيه دنانير وهو يقول :

ـــ أشبع أمك يا ابن بحر بما تشتريه من السوق ، أيكفى خمسون دينارا ؟

وهتف أبو عثمان :

ـــ خمسون كاملة ؟

فضحك مويس وهو يدفعه الى الخارج ، وقال :

ـــ لا تنقص شيئا والله !

وسرعان ما كان أبو عثمان فى السوق يشترى الدقيق والزبيب والزيت والتمر ، ولم يرجع الا وحمالون يتبعونه بمئونة كبيرة ، وعندما رأت الأم كل هذا صاحت قائلة :

ـــ من أين لك هذا ؟

قال :

من الكراريس التى قدمتها الى !

٣ ـ فى المربد

على الرغم من أن أبا عثمان كان متهلل الخاطر متطلق الوجه ، فقد بدا فى ذلك اليوم من عام ١٧٠ عابسا . ان ابن سيار أنهى اليه نبأ وفاة الخليل بن أحمد ، وذكر له : ان ذكرى الراحل ضاعت فى تولية يحيى البرمكى الوزارة للرشيد .

لم يعرف بالنبأ من قبل ، لأنه انقطع أسبوعا أو نحوه فى